شعراء عبد أشعارهم

٤ ـ عدى بن زيد العبادى

للأستاذ محمود عبد العزيز محرم

ولا تنس أننى حدثتك من إخوة عدى ، وأنهم لدى كسرى ناعمون ، وأنه أقطعهم الضياع وأجزل لهم الصلات . وهذا هو عدى يحدثنا عنهم وعن أهله، ويأسى لأسارهم، ويستعين بهم ، ويصف لهم حاله وما هو فيه من قيد ، ومن حديد مضاعف ، ومن غلول ، ومن ثياب أخلاق مرقعات . وهو مع ذلك لا يفوته أن يبرئ ذمته مما اتهم به ، ويؤكد إخلاصه للملك :

ليس شئ على المنون بباق غير وجه المسبح الخلاق
إن تكن آمنين ، فاجأنا شر مصيب ذا الود والإشفاق
فبرئ صدرى من الظلم للشر ب وحنث بعقد الميثاق
واقد ساءنى زيارة ذى قر بى حبيب لو دنا مشتاق
ساءه ما بنا تبين فى الأيدى وإشناقها (١) إلى الأعناق
فاذهبى يا أميم غير بعيد لا يؤاتى (٢) العناق من فى الوثاق
واذهبى يا أميم إن يشأ الله بنفس من أزم (٣) هذا الخناق
أو تكن وجهة ، فتلك سبيل الناس لا يمنع الحتوف الرواق
وتقول الصداة أودى (٤) عدى وبنوه قد أيقنوا بهلاك (٥)
يا أبا سهر فأبلغ رسولا إخوتى إن أتيت صحن العراق
أبلغا عامرا ، وأبلغ أخاه أننى موثق شديد وثاق
فى حديد القسطاس ، يرقبنى الحا رس ، والمرء كل شئ يلاق
فى حديد مضاعف ، وغلول (٦) وثياب منضحات (٧) خلاق (٨)
فاركبوا فى الحرام (٩) فكوا أخاكم إن عيراً قد جهزت لانطلاق

ثم هو يتحدث عن أهله مرة ويصف ما يلاقيه ، وما يختلج فى نفوسهن من نوازع الحذر والإشفاق ، فيقول :

وبيوتى مقفرة إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عدى كشن خانه خرز (١٠) الريب
يحاذرن الوشاة على عدى وما اقترفوا عليه من الذنوب

وقد أرسل عدى رسالة من سجنه إلى أخيه أبى وهو مع كسرى ، يستعطفه ، ويستنجده ، ويصف حاله :

أبلغ أبيا على نأيه (١١) وهل ينفع المرء ما قد علم
بأن أخاك شقيق الفؤا د كنت به واثقاً ما سلم
لدى ملك ، موثق فى الحديد ، إما يحق وإما ظلم
فلا أعرفنك كذات الفلا م ما لم تجد عارماً تسترم (١٢)
فأرضك ، أرضك ، إن تأتنا تم نومة ليس فيها حلم (١٣)

وإن كان عدى قد أخطأ فقد يخطىء الصديق ! وإن كان ظلم فهذا نصيبه ! وهلا تستطيع أيها الملك أن تتدارك الأمر وتجنح إلى الرأى المصيب ! وعلى كل ، فقد وكل عدى أمره لله . وهو رب قريب مستجيب :

فإن أخطأت ، أو أوهمت أمرا فقد يهم المصافى بالحبيب
وإن أظلم ، فقد عاقبتمونى وإن أظلم ، فذلك من نصيبى
وإن أهلك (١٤) تجد فقدى وتخذل إذا التقت الموالى (١٥) فى الحروب
فهل لك أن تدارك ما لدينا ولا تغلب على الرأى المصيب
فإنى قد وكلت اليوم أمرى إلى رب قريب مستجيب

هذا عدى : عدى البائس المحزون . الحبيس فى سجن صديقه وملبكه النعمان . لم يكن يتوقع يوماً أن يكون فى مثل حاله هذه ، وإن ماضيه مع الملك ، وماضى بيتيهما معا ، لم يكن يوحى — لحظة من اللحظات — أن هذه المصافاة والإخلاص والود قد تنقلب أمى ما بعده أمى ، وشر تصغر دونه الشرور ، وقد استطاع عدى بكل ما أوتى من قدرة على البيان والتعبير ، قدرة الفنان البائس المذكور ، أن يرسم لنا صورة له فى

(١) الإشناق أن تغل اليد إلى العنق (٢) العناق لا يسعف الموثوق (٣) شدة (٤) هلك (٥) بهلاك وضياع ، من غلق الرهن إذا استوفى (٦) جمع غل (٧) مرقعات أو ظهر أثر العرق فيها (٨) جمع خلق (٩) فى الشهر الحرام

(١٠) الشن : الخلق من كل آنية من جلد . الريب : من يرب الشن ويصلحه (دموعهن غزيرة كماء المنافط من الشن البالى الذى لم يفلح فيه الخرز) (١١) بعده (١٢) ذات الفلام : الأم الرضم . عارما : راضعا . يقال : عرم الصبى أمه عرما : رضعها . لتسترم : إن لم تجد من ترضعه درت لحليت تديها ، وربما وضعته ثم بحثه من فيها ، ولقد تطلب من يرضعها . ويقال هذا البيت لمن يعمل على ذم نفسه (١٣) يحذره من المجىء إليه وإلا يهلك ، فإن كان باذلا عونا فهو لدى كسرى ، كما سنعرف بعد (١٤) تحس (١٥) الرماح

السجن . ولأهله ، وأن يحدثنا عما كان بينه وبين النعمان من مودة وصفاء ، وأن يذكر النعمان بأياديه عليه ، وأن يذكره بما كان لزيد أبي عدى من ملك الحيرة قبل المنذر أبي النعمان ، ويذكره الصهر ، ويضرع إليه ألا يشمت به الأعداء

وقد أكره النعمان عديا على طلاق هند . وما كان ينتظار لهذا الزواج غير هذا ، ففارق السن ، والطريقة التي تم بها ، وعدم مواءمة الزوجين كفاءة كما يرى النعمان ، كل هذا كان يشير إلى أن الزواج قد لا يطول أجله ، وأن الفراق ينتظار الزوجين بعد حين طويل أو قصير . ثم جاءت الأحداث تتابع ، وانتهى هـــذا الزواج من أسباب النفرة بين عدى والنعمان ، ودخل الأعداء ، وخشى النعمان عديا ؛ فكان الحبس ، وكان الطلاق

وقد ترهبت هند بعد ذلك في ديرها المعروف بدير هند ، وقد بقيت حين تنصرت بعد تنصر أبيها على يد عدى ، وحبست نفسها فيه ، وأعرضت عن الحياة الدنيا بزخارفها ومفاتنها ، إلى حياة نبيلة طهور تطمح إليها آمال النصارى المخلصين

واختلفت الرواة ، فمن قائل إنها ترهبت بعد طلاقها ، ومن قائل ترهبت أسى على زرقاء اليمامة ، ومن قائل ترهبت حين قتل كسرى أباها النعمان

وأنا لا أميل إلى القولين الأولين ؛ لأنها ما كانت تحزن على زوجها عـــدى حزنا يفقدها الرغبة في الحياة ، ويدعوها إلى الرهبانية ، وأنت تعرف ما أحاط بهذا الزواج مما يجعله غير مرجو النجاح ، ولأن قصة زرقاء اليمامة ، وصلتها بهند ، غير واضحة ولا مفهومة . وأما ترهبها لفقدها أباها ، فقد يبـــدو مقبولا ومعقولا ؛ لأنه عزها وفخرها ؛ ولأنه يصعب على أبناء الملوك أن يعيشوا كالناس بعد جلال الملك وأبهة الملوك ، فينزووا في ناحية من نواحي الأرض يعيشون فيها في ستر وخفاء . وكانت هند قريبة عهد بالنصرانية ، والمثل السامق الأعلى لها هو الترهب ، فلعل نشوة دينية بعد قتل أبيها ألجأتها إلى ديرها المعروف . فهي قد تكون ترهبت حين ألمت بالنعمان الخطوب فوق تأثرها بالمثل الأعلى للنصرانية

وكانت هند تمتز بأبيها ، وتحفظ اسمه ، وتغار عليه ، حتى بعد أن أزلها الدهر من مكانتها . ويحدثنا الرواة أن المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة مر بدير هند ، فنزله ودخل عليها ، بعد أن استأذن عليها ، فأذنت له وبسطت مسحاً فجلس عليه ، ثم قالت له : ما جاء بك ؟ قال : جئت خاطباً ؛ قالت والصليب لو علمت أن في خصلة من جمال أو شباب رغبتك في لأجبتك ، ولكنك أردت أن تقول في الموسم : ملكت ملكة النعمان بن المنذر ، ونكحت ابنته ، فبحق معبودك أهذا أردت ؟ قال : إي والله ؛ قالت : فلا سبيل إليـــه ؛ فقام المغيرة وانصرف وقال فيها :

أدركت ما منيت نفسي خالياً ... لله درك يا ابنـــة النعمان
فلقد رددت على المغيرة ذهنه ... إن الملوك بقية الأذهان

وقد أيأس إخوة عدى ، وهم عند كسرى ، ما نزل بأخيهم ، فسعوا له ، وعملوا على كسر قيده ، وراسلوه في سجنه ، فلقد كتب إليه أخوه أبي :

إن يكن قد خانك الزمان ، فلا تجزع باع(١٦) ولا ألف(١٧) ضعيف
ويمين الإله — لو أن جأواء(١٨) طحونا تضيء(١٩) فيها السيوف
ذات رز(٢٠) ، عجاجة غمرة الموت ، صحيح(٢١) مر بالهامات لفوف(٢٢)
كنت في حيها — لجثتك أصمى قاعدا ، لو سمعت ، إذ تستضيف(٢٣)
أو بمال سألت دونك لم يمنع تلاد لحاجة أو طريف(٢٤)
أو بأرض أسطيع آتيك فيها ... لم يهنى بعد بها أو مخوف
إن تفتني والله إلفاً فجوعاً ... لا يعقبك ما يصوب الخريف
في الأعادي ، وأنت مني بعيد ... عز هذا الزمان والتصنيف
ولعمري لئن جزعت عليه ... لجزوع على الصديق أسوف
ولعمري لن ملكت عزائي ... لقليل شرواك(٢٥) فيما أطوف

ثم احتال للدخول على كسرى فأخبره ، فكتب كسرى للنعمان يأمره بإطلاق عدى . غير أن الوشاة أسرعوا قبل فوات الفرصة ، وحرضوا النعمان وخوفوه وأنذروه إن أبقى على عدى ، فبعث إليه أعداءه ، فقتلوه حتى مات

(١٦) كناية عن القوة (١٧) الثقيل البطيء (١٨) كتيبة جأواء : بينة الجأى : يعلو لونها السواد لكثرة الدروع (١٩) تطعن ما لقيت (٢٠) الرز : الصوت يسمع من بعيد (٢١) السربال : القميص (٢٢) من كففت الثوب إذا خطت حاشيته (٢٣) تستجير (٢٤) التلاد ضد الطريف ، وهو القديم (٢٥) مثلك

ابحث بقية — محمود عبد العزيز محرم